بعضاً مع اختلاف هيئاتها وخطوطها لا ينقصها الّا خمس عشرة صفحة. فشكرنا الباري تعالى على هذا التوفيق الغريب الذي جاء مطابقاً لرغبتنا تماماً

واذ حصلت اليوم في يدنا نسخة مخطوطة كاملة من فتوح الشام للواقدي عزمنا على اعادة النظر في النسخ المطبوعة واصلاحها على النسخة الخطيّة التي وجدناها مع تذييل الكتاب بالحواشي والافادات التاريخيّة والجغرافيّة التي تزيده تمماً مستندين في ذلك الى اثبت التواريخ واصدقها لاسيما بعض المخطوطات النادرة والمطبوعات العزيزة الوجود وذلك بعبارة موجزة لائقة بنمط الكتاب ان شاء الله. وها نحن نورد هنا مثالاً من نسختنا يبيّن فضلها على غيرها من النسخ المطبوعة. وهو خطاب بديع للنعمان بن مقرن القاه على الجيش الذين استصحبهم من الكوفة والبصرة لمحاربة الفرس في وقعة نهاوند. قال:

« ان الفرس امامكم فان هزمتموهم ترجعون الى نعمة وسرور وان هزموكم والعياذ بالله فلا بصرة ولا كوفة ولا مدينة تظلّكم. واعلموا انكم قد اصبحتم باباً للاسلام. فان كسروا هذا الباب والعياذ بالله دخل على الاسلام منهُ ضرّة. فانه الله عباد الله ان تخذلوا. فانتم عماد الدين توحدونهُ وتعبدونهُ. وانما تقاتلون خلقاً من خلق الله يأكلون رزقه ويعبدون غيرهُ وهي الشمس والقمر والنار وينكحون الاخوات والامهات والخالات والعمات وكل فاحشة يعمارنها. وقد ساقكم الله اليهم وساقهم اليكم هواناً بهم وكرامة لكم. فتقرّبوا الى الله بجهادكم وارغبوا في اعظم ثواب الله. . . الخ »

فحسبك هذا المثال للوقوف على خطر نسختنا. والسلام

الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر

بحث تاريخي وانتقادي للاب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

وقد اشتهر في هذا الطور الثاني غير الذين ذكرناهم من أدباء المسلمين لاسيما في العراق وحلب الّا انّ اخبارهم قليلة متضعضعة ولعلّ بعض القراء يرشدوننا اليها فيحيوا ذكر اولئك الافاضل الذين درست آثارهم مع قرب عهدهم منّا

امّا ادباء النصارى الذين عُرفوا في تلك المدّة بخدمة الاداب العربيّة فها نحن نذكر

من اتّحلت به معرفتنا القاصرة مع الرجاء بان يزيدنا اهل الفضل فيهم علماً ويسدُّوا ما يجدون من الخلل

فمَّن يستحقُّ الذكر بآدابه وشعره في الطور الذي نحن في صدده نصرالله الطرابلسي وهو ابن فتح الله بن بشارة الطرابلسي ولد في حلب سنة ١٧٧٠ وكان من اسرة كريمة من طائفة الروم الكاثوليك. ولما انتقل ابوه الى طرابلس عُرف بالطرابلسي وكان عريقاً بالدين تحمَّل في سبيل ايمانه محناً عديدة فنشأ ابنهُ على مثاله تقيّاً ورعاً وكان مع ذلك متوقد الذهن محبّاً للعلوم ولدرس اللغات فتعلم منها التركية والفرنسوية وكان مبرزاً في الآداب العربيَّة مطّلعاً على فنونها يُحسن فيها الكتابة وينظم الشعر الحسن . وقد ابقى من نظمه مآثر عديدة اكثرها متفرق لو جُمعت حصل منها ديوان كامل. وسكن نصرالله الشهباء زمناً طويلاً ومدح وجوه اهلها من مسلمين ونصارى لاسيما نقيبها محمَّد الجابري وقد اثبتنا في المشرق (٣ : ٤٠٠) قصيدتهُ فيه ومدح الشيخ هاشم افندي الكلّاسي فقال فيه:

لمَّا سمعتُ مسلّلاً من سادةٍ ... انَّ الفصاحة كلها في هاشمِ
يممتُ ناديهُ والنيت العصا ... ورجوتُ يقبلني ولو كالخادم
ان جاد لي بالارتضا فبفضلهِ ... او لم يجُدْ فلهوْ حظ الناظمِ

فاجابهُ الشيخ جواباً لطيفاً فكتب اليه:

سيمُ لطفك صابني بالوكةِ ... صبَّ المحبّ الى محبٍّ قادمِ
فبشاشةٍ اهلاً وسهلاً مرحباً ... بسامرٍ ومنادمٍ لا خادمِ

وكذلك كان الطرابلسي يتردد على عبد الله الدلّال (١ ويجتمع عنده باديا زمانه وقد قال في احدهم فتح الله المرّاش قصيدة يشكر لهُ جميل ايادية ويهنئه بعقد زواجه سنة ١٨٢١ هذا مطلعها:

يا للهوى ما للعذول ومالي ... انا قد رضيتُ بكافةِ الاحوالِ

ومنها في المدح:

الندبُ عبد الله فخر اوانهِ ... نسل الاماجد من بني الدلّالِ
فهو الذي يشري الثناء بمالهِ ... ويزيّن الاقوال بالافعالِ
وهو الذي لم يخلُ قطُّ زمانهُ ... من غوث ملهوف وبذلِ نوالِ

١) اطلب السحر الحلال في شعر الدلّال للاديب قسطاكي الحمصي (ص ٢-٣)

وختمها بهذا التاريخ:

واسلم بتاريخي ودمتَ بغبطةٍ ... متمتعاً باللطف والاقبالِ

وممَّن مدحهم في حلب القنصل الفرنسوي يوسف لورين روسو وكان محبًّا للاداب الشرقيَّة (اطلب المشرق ٣: ٣٩٨ و٤٠٠) وبايعازه نظم الطرابلسي تهنئة نابوليون الاول بمولد نجلهِ الذي دعاهُ ملك رومية سنة ١٨١١ فقال قصيدتهُ التي اوَّلها (المشرق ٣: ٣٩٩):

ورد البشيرُ فسرَّت الاقطارُ ... وترغَّدت في دوحها الاطيارُ

ومن حسن نظمهِ ابياتهُ في شهداء الكثلكة في حلب سنة ١٨١٨ (المشرق ٣: ٤٠٢ و١٠: ٦٦٤) فقال:

دعِ العين مني تذرف الدمع عندما ... فحقَّ لهذا الخطب ان تُسكب الدما

وفيها ابيات صادرة عن قلب طافح حبًّا متفطر حزنًا. وفي السنة ١٨٢٨ تحامل على الطرابلسي اعداؤهُ فاحبَّ الخروج من وطنهِ ورحل الى مصر فاقي الحظوى عند بني البحري من اعيان طائفتهِ وكانوا متقدِّمين في الدواوين فخدمهم وتقرب بواسطتهم في المناصب وقد مرَّت لنا اقوالهُ فيهم (المشرق ٣: ٤٠٣ — ٤٠٥) وتوصل بهم الى محمد علي باشا خديو مصر فمدحهُ ونال من احسانهِ. وكانت وفاة الطرابلسي نحو السنة ١٨٤٠ وشعرهُ منسجم بليغ المعاني كثير التفنن اوردنا منهُ ما اوقفنا عليهِ بعض ادباء الشهباء في اغراض شتى (المشرق ٣: ٤٠٦ — ٤٠٨) وممَّا وجدنا لهُ بعد ذلك مراسلات شعر وتقريظ وبين شاعر عصره بطرس كرامة فقال هذا في مدحهِ:

نشأت بنصر الله روح صبابةٍ ... وأبى الفؤادُ لنيرها ان يذكرا
فرعٌ لفتح الله اينع مخصباً ... بحديقة الآداب شبَّ وانمرا
فاليك يُعزى الفضل يا من لاح لي ... منهُ الودادُ ولن يراني مبصرا
قربًا لدار كنتَ فيها وحبَّذا م الشهباء نصر الله فيها قد سرى

فاجابهُ نصر الله الطرابلسيّ من قصيدة وقد ذكر فيها طرابلس بلدهُ وكان بطرس كرامة حينئذٍ ساكنًا فيها:

فسقى طرابلس السحابُ وليثهُ ... سحًّا وهتَّانًا يُرى متفجِّرا
بلدٌ كأنَّ الدهر عاندني بها ... فاساقَ اهلي قبل أن اطأ الثرى
لو فاخرتْ كل البلاد بانَّ فيها بطرسًا لكفى بذلك مفخرا
الاوحد الندب الفريد الاعبد الندس الحيد الالمعي الأنورا

الى ان ختمها بقوله:

واسلم ودم بهناءة وكرامة يا مورداً لم ارضَ عنهُ مصدرا
ما سارتِ الركبان تقطع فدفداً من عاشق ولهانَ خدي الاسطرا

ولهُ ايضاً من قصيدة اخرى في مدحهِ وذكر بعض رسائلهِ:

شرَّفتنا بكتاب منك قد بزغت انوارهُ فهدينا واقتبسناها
رسالة أُرسلت للقلب تحفظهُ فالهُ ضاع مني عند مسراها
فيا لها دوراً من ثغركم قذفت سفن العلوم فيأسم الله مجراها
وصرتُ أُلثمها شوقاً وانشدها توقاً لمن يديع النظم وشاها
ان اسعد الله عيني ساعةً ورأت محياكمُ وجلت بالنور مرآها
غفرتُ للدهر ما ابداهُ من نكدٍ ونلت من واردات السر اهناها

وكتب لهُ ايضاً:

لقد حكم الزمان عليّ حتَّى اراني في هواك كما تراني
وان بعدت ديارك من ديارِي فشخصك ليس يبرح عن عياني
لقد امكنت حبك من فؤادي مكاناً ليس يعرفهُ جناني
كانك قد ختمت على ضميري فنيرك لا يمرُّ على لساني

ونُلحق هنا بذكر نصرالله الطرابلسيّ ترجمة صديقهِ بطرس كامة الذي لعب في ترقي الآداب العربيَّة دوراً مهماً قبل اواسط القرن التاسع عشر. وهو بطرس بن ابراهيم كامة الحمصيّ من اعيان حمص وكان اهلهُ من الروم الملكيين يدينون بالدين الكاثوليكي وهم متحمسون فيهِ. وكان عمُّهُ ارميا كامة من الرهبان الشويريين ثم انتقل الى الرهبنة المخلصية. وفي سنة ١٧٦٣ سُقف على قلاية دمشق فعُرف بطران دمشق وقاسى محناً عديدة من قبل المتفصلين الى أن توفي سنة ١٧٩٥ في دير المخلص. وكان عالماً غيوراً على ايمانهِ ولهُ مصنَّفات دينيَّة. اما بطرس كامة ابن اخيهِ فولد في حمص سنة ١٧٧٤ وفيها نشأ وتأدَّب ولهُ في مديح اعيانها اقوال حسنة كقولهِ في الشيخ عبد الرحمان الكزبري:

يا حبَّذا حمص التي ضاءت باعظم نيرِ
قد اشرق البدرُ بها وبشمس فضل الكزبري

وقال مرتجلاً في الشيخ امين الجندي الذي مرَّ لنا ذكرهُ:

لله نعمَ مهذبٍ باهت بهِ حمصٌ ونور الفضل منهُ يبينُ
لا غرو اذ فاق البديعَ انهُ شهم على درر البديع امينُ

ثم قويت شوكة المتفصلين فألحقوا بالكاثوليك ضروب الاذى سنة ١٨١٠ فاضطر بطرس ان يفارق حمص مع والده متوجهين الى عكا فسكنا هناك مدة ثم صعدا الى لبنان فاستوطنا الجبل واتصل بطرس بنقولا الترك شاعر الامير بشير فقربه منه وحظي بطرس عند الامير الشهابي لما رآه فيه من العلم وجودة العقل وفصاحة اللسان مع معرفته للغة التركية. ثم جعله الامير بشير معتمداً من قبله في التوجه الى عكا فقام باوامر سيده احسن قيام ثم سلمه الامير تنظيم خزينة الحكومة فوضع لها قوانين استحسنها الشهابي وامر باجرائها ثم رفع منزلته وعمله كتخداه فصارت امور لبنان كلها في يده يدبرها احسن تدبير فوقعت هيبته في القلوب وانتشرت شهرته. ولما سار الامير بشير الى الاستانة سنة ١٨٤٠ رافقه بطرس كرامة ونال من الالتفات وعلو المقام لدى رجال الدولة ما لم يزل مشهوراً. ثم عين ترجماناً للسابين الهمايوني فاظهر من البراعة ما اكسبه ثقة الجميع. وبقي في تسليم اعباء وظيفته الى سنة وفاته في الاستانة العلية سنة ١٨٥١. وله مع اكابر رجالها مساجلات لطيفة وكان بليغ الكلام. وقد ارخ وفاته الشيخ ناصيف اليازجي فقال:

مضى من كان اذكى من اياس بحكمته واشهر من زهير
فقل يا ابن الكرامة قر عيناً لبطرس ارخوه ختام خير

ولبطرس كرامة مكاتبات ورسائل غير مطبوعة. وله ديوان شعر كبير طبعه الاديب سليم بك ناصيف سنة ١٨٩٨ في المطبعة الادبية وقد وجدنا لهذا الشاعر آثاراً اخرى في بيت حفيده الفاضل. منها مساجلاته مع ادباء الاستانة ومنظوماته في العاصمة وبعضها لم يُطبع في ديوانه. وشعر بطرس كرامة اضبط واطبع من شعر آل عصره تراه يتصرف في المعاني ويخرجها على ابدع طريقة فمن قوله في الوصف ذكره لباقة زهر اهداها اياها الامير بشير:

وباقة زهر من يديك منحتها معطرة الارواح مثل ثنائه
فابيضها يحكي جميع خصاله واصفرها يحكي نضار عطائه
وازرقها عين تشاهد فضله واحمرها يحكي دماء عدائه

وله تخميس وتشطير على هذه الابيات. ومما لم نجده في ديوانه قصيدة قالها مستغفراً عما فرط منه ومناقشاً اهل المادة في آرائهم الفاسدة وسماها «درة التعريض وشفاء المريض»: اولها:

نأى الوجد عن قلبي وأعيت بلابله وبانت لبانات الهوى وبلابله

وهي طويلة نختار منها احسن ابياتها:

ألا اندب زماناً قد صرفتُ بكورهُ خلالاً وقد مرّت سفاهاً اصائلهْ
فكم خضتُ بحر المعصيات مفاخراً وقصّرت رجلاً عن ثواب تقابلهْ
وكم اسمعتْك الحادثاتُ نصائحاً فلم تنطع من سوْ فعلٍ تواصلهْ
فدع عنك ذكر الفانيات فكم بهِ هوى فاضلٌ كانت تضيّ فضائلهْ
وخلّ الاغاني فالاغاني حبالة يُصادُ بها ساعي الذكاء وخاملهْ
ولا تشرب الصهبا فانّ بشربها سواء يُرى قسُّ البيانِ وباقلهْ
فيا شوقتي ان لم تأجج ندامةٌ لظى كبدي والطَّرْف يجتن وابلهْ
ويا لهفتي ان لا اتوب بتوبةٍ أُغاث بها من ويل ذنب انازلهْ
فيا حيُّ يا قيوم يا غافر الخطا لمستغفر يا من يرى الرشد سائلهْ
ويا من وعدت التائبين برحمةٍ وعفوٍ وان ذنبٌ تطاول طائلهْ
الا اغفر لعبدٍ اثخنتهُ مآثمٌ ومن جملة الاوزار قد كلَّ كاهلهْ
فان كان ذنبي قد تعاظم جرمهُ فعفوك بحرٌ ليس يُدركُ ساحلهْ
فيا ويح قوم قد عصوك واركنوا الى الكفر فانصبّت عليهم غوائلهْ
فان ابتدعوا فعل الطبائع بعضها فبداءة هذا الفعل من هو فاعلهْ
ويازم من هذا دوامُ تسلسلٍ وهذا محال لا تصحُّ مسائلهْ
فمن سيّر الاقمار في درجاتها على دورانٍ لا تحلُّ منازلهْ
فان كان جذباً شاملاً قد رووا فمن ترى اوجد الجذب الذي هو كاملهْ
فيا ملحداً اعمى على الله منكراً فانَّ وجود الله صحّت دلائلهْ
فمن ابدع الكون البديع نظامهُ ومن ذا على ترتيبه الدهر شاملهْ
فان قلتَ انَّ الكائنات قدمتها فقد لزم الدورُ الذي شاع باطلهْ
وان قلت اجزاء قديم وجودها تحركها بالطبع كانت تعاملهْ
فوافقَ وفقاً انها قد تألفت على هيأة منها نشا الكون كاملهْ
فما هذه الاجزا وهل بارادةٍ تحركها ام جاء بالقسر عاملهْ
فان كان قسراً فهي تحتاج موجداً يقيم بها فعلاً سرياً تفاعلهْ
وان كان عن قصدٍ اتى فهي ربكم تقاسمهُ عالي الوجود وسافلهْ
فما قلتموه باطلٌ وكلامكم محال وبطول النتيجة حاصلهْ
فيا واحداً يا قادراً يا مهيمناً تنزّه عن ضدٍّ وندٍّ يماثلهْ
فهبْ لي عفواً من لدنك ومنّة وحسن ختام ليس يُمنَعُ آملهْ

(له بقيّة)